(٥)

"عذاب المشركين يوم القيامة أليم، فعلى النّاس الاستجابة للّه تعالى خالق كلّ شيء ومنزل القرآن الكريم الّذي يهدي إلى صراط اللّه تعالى المستقيم"

الآيات (٤٤-٥٣)

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

وتراهم يعرضون عليها: وترى يا محمد الظالمين يعرضون على النّار[1].

خاشعين من الذّلّ: خاضعين متذلّلين[2] قد أذلّهم الخوف الّذي نزل بهم وخشعوا له[3].

ينظرون من طرف خفيّ: ينظر هؤلاء الظّالمون إلى النّار حين يعرضون عليها من طرفٍ خفيّ[4] ذليلٍ قد خفي من ذلّه[5] يسارقون النّظر [6].

وقال الّذين آمنوا إنّ الخاسرين: وقال الّذين آمنوا بالله ورسوله إنّ المغبونين[7] الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة: الّذين غبنوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة في الجنّة[8].

ومن يضلله الله تعالى بعد أن أصرّ هو على الضّلال والإعراض عن دعوة الحقّ فما له بعد الله تعالى مِنْ وليّ يتولّى شؤونه ويرعى مصالحه. وهكذا يزيد الله تعالى الّذي

---

(1) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(2) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(3) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(4) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(5) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(6) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(7) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.
(8) تفسير الطّبري ٢١\٢٥.

اختار العمى على الهدى عمى بصيرةٍ إلى عماه. وترى يا محمّد المشركين لما رأوا العذاب يوم القيامة يقولون على سبيل التّمنّي: هل إلى مردّ لنا وخروج من هذا الموقف العصيب ورجوعٍ إلى الدّنيا من سبيل كي نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل! وبطبيعة الحال يكون الجواب بالرّفض لأن الآخرة دار الجزاء ثواباً أو عقاباً، ولأنّه قد سبق إلى علم الله تعالى أنّهم لو رُدُّوا إلى الحياة الدّنيا لعادوا لما نُهوا عنه. وترى المشركين يا محمّد ويا أيها المؤمن يُعْرَضون على نار جهنّم خاشعين من الذّلّ، خاضعين من الخزي، مطأطئي رؤوسهم من الهوان، ينظرون إلى النّار خلسةً بباعث الخوف من سوء المصير، ويسارقون النّظر إلى جهنّم من طرفهم الكليل، وبصرهم العليل، انطلاقاً من موقفهم الذّليل، وانتظاراً لمصيرهم الوبيل.

وقال الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله - صلّى الله عليه وسلم - وقد اطمأنّوا بفضل الله تعالى إلى حُسْن المصير: إنّ الخاسرين والمغبونين على الحقيقة هم الذين خسروا أنفسهم بضلالهم، وخسروا أهليهم بإضلالهم إيّاهم فكان مصيرهم يوم القيامة النّار وبئس القرار. ألا إنّ الظّالمين بالشّرك وارتكاب الآثام في عذابٍ دائمٍ أليمٍ مهين. وما كان لأولئك المشركين من أولياء وأصدقاء ينصرونهم من دون الله تعالى بصرف العذاب أو تخفيفه. ومن يضلله الله تعالى فما له من سبيلٍ في الحياة الدّنيا إلى الهدى الّذي لا يكون إلاّ بتّوفيق الله تعالى، وفي الحياة الآخر إلى مغفرةٍ من الله تعالى ورضوانٍ وجنّةٍ عرضها السّموات والأرض أعدّها جلّ وعلا لعباده المتقين.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا

ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لا مردّ له من الله: لا شيء يردّ مجيئه إذا جاء الله به[1] .

وما لكم من نكير: إنكار لذنوبكم [2].

إنّ عليك إلاّ البلاغ: ما عليك إلاّ البلاغ[3].

استجيبوا أيّها المشركون لنداء ربّكم جلّ وعلا بالإيمان وعمل الصّالحات من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله تعالى وقد أمر بمجيئه أمراً حتمياً وهو يوم القيامة الّذي لاشكّ فيه، ولا ريب في مجيئه. وفي ذلك اليوم الّذي تعاقبون فيه ما لكم من ملجأ من عذاب الله تعالى ومفرّ وما لكم من قدرةٍ على إنكار الذّنوب لأن سمعكم وأبصاركم وجلودكم وفروجكم سوف تشهد عليكم في حالة الإنكار.

فإن أصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن دعوتك يا محمّد لهم إلى صراطٍ العزيز الحميد فإنّا ما أرسلناك عليهم حفيظاً ولا مسيطرا. ما عليك يا محمّد إلاّ البلاغ، وقد فَعَلْت فلا تقتل نفسك حزناً لإعراضهم عن دعوتك وصدّهم الآخرين عن سبيل الله تعالى.

وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمةً من صحّة ومالٍ وجاهٍ وما إلى ذلك فَرِح بها فَرَحَ أَشَرٍ وبطر، إلاّ من رحم ربّك وإن تصب ذلك الجنس من النّاس الفَرِح المختال الفخور

---

[1] تفسير الطّبري ٢٧/٢٥.

[2] الجلالين.

[3] التفسير الطّبري ٢٧/٢٥، والجلالين، والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١١/١١.

سيّئة من مرضٍ أو فقرٍ أو زوال نعمةٍ وما إلى ذلك، فإنّ ذلك الجنس من النّاس كفور للنّعمة، شديد الجزع، سريع اليأس من رَوْح الله تعالى، والقنوط من رحمته جلّ وعلا.

وواضح أنّنا بصدد تسليةٍ لفؤاد المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم -.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

أو يزوّجهم ذكراناً وإناثا:أو يخلط بينهم ذكراناً وإناثا، وذلك هو التزويج[1].

ويجعل من يشاء عقيماً: لا يولد له[2].

سبق أن بيّنت الآية الكريمة الحادية عشرة أنّ مِنَ الأدلّة على قدرة الله تعالى المطلقة أنّه عزّ وجلّ جعل لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وتسكن إلينا. وكذلك جعل عزّ وجلّ من الأنعام أزواجاً. وقانون الزّوجيّة يشمل الكون كلّه وليس مِنْ واحدٍ أحدٍ سوى الله تعالى. وفي نهاية السّورة الكريمة عودة هنا إلى الزّوجيّة في حقّ البشر.

إنّ لله تعالى ملك السّموات والأرض وما فيهنّ ومن فيهن، فله جلّ وعلا وحده دون سواه الأمر والحكم، وإليه الرّجوع يوم القيامة. والله تعالى يخلق ما يشاء، فله عزّ وجلّ وحده دون سواه الخلق، كما أنّ له وحده دون سواه الأمر.

وبشأن الأبناء من البشر يهبهم الله تعالى للآباء أحياناً إناثاً. ومن هؤلاء الآباء لوط عليه السّلام[3].

---

(1) انظر تفسير الطّبري ٢٧/٢٥.

(2) تفسير الطّبري ٢٧/٢٥.

(3) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٧.

وأحياناً يكونون ذكوراً، كإبراهيم الخليل عليه السّلام، الّذي لم يولد له أنثى[1] وأحياناً يُخْلَطون ويُجْعَلون ذكوراً وإناثاً، كمحمّد عليه الصّلاة والسّلام[2] ويجعل عزّ وجلّ من يشاء عقيما، كيحيى وعيسى عليهما السّلام[3].

إنّه عزّ وجلّ عليم، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيء في الأرض ولا في السّماء، قدير، فلا يعجزه جلّ وعلا شيء في الأرض ولا في السّماء. ولا يخفى دور ثنائيّة المعنى في التّذييل: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ في تعميق معنى الآيتين الكريمتين الدّالتين على عظيم علم الله تعالى وقدرته.

وإذا كان الأبناء أربعة أنواع، باعتبار عدم الإنجاب نوعاً رابعاً، فإنّ الآباء أربعة أنواع كذلك. لقد خلق الله تعالى آدم – عليه السّلام – من تراب، لا من ذكرٍ ولا أنثى، وخلق حوّاء عليها السّلام. من ضِلع آدم عليه السّلام، أي من ذكرٍ ولا أنثى، وخلق عيسى – عليه السّلام– من أنثى ولا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكرٍ و أنثى، سبحانه ما أجلّ شأنه[4]

وإنّ العودة في السّورة إلى الحديث في الموضوع ذاته نوع من الرّباط بين أجزاء السّورة الكريمة الّتي تهدف من الحديث في ثنائيّة الخلق إلى إثبات وحدانيّة الخالق جلّ وعلا.

---

[1] تفسير ابن كثير ٢٠٣/٧.

[2] تفسير ابن كثير ٢٠٣/٧.

[3] تفسير ابن كثير ٢٠٣/٧.

[4] انظر تفسير ابن كثير ٢٠٣/٧.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

وما ينبغي لبشر ولا يصحّ أن يكلّمه الله تعالى إلاّ وحياً في اليقظة بأن يقذف بما يريد في روعه أي في قلبه، أو في المنام، بأن يرى رؤيا، ويوقن بشأن كلّ من نوعي الوحي أنّه من عند الله تعالى. جاء – مثلاً – في صحيح ابن حبّان من رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – أنّه قال: إنّ روح القدس نفث في روعي أنّ نفساً لن تموت حتّى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطّلب[1] .

وكذلك ما ينبغي لبشرٍ ولا يصحّ أن يكلّمه الله تعالى في الدّنيا إلاّ من وراء حجاب، كما جري لموسى عليه السّلام. جاء في سورة الأعراف[2] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

وكذلك ما ينبغي لبشرٍ ولا يصحّ أن يكلّمه الله تعالى في الدّنيا إلاّ أن يرسل عزّ وجلّ رسولاً، هو جبريل عليه السّلام، فيوحي إليه بإذنه جلّ وعلا ما يشاء عزّ وجلّ أن

---

[1] تفسير ابن كثير ٢٠٤/٧

[2] الآيتان ١٤٣ و ١٤٤

يوحي به إليه. وجبريل - عليه السّلام - هو السّفير بين الحقّ جلّ وعلا وبين محمّد - صلّى الله عليه وسلّم-.

إنّه جلّ وعلا عليّ على جميع خلقه عليمٌ قدير. وإنّه جلّ وعلا حكيم في صنعه وتدبيره وحُكْمه وفي كلّ شيء.

وواضح أنّنا بشأن كلامٍ من الحقّ جلّ وعلا، كما جرى لموسى عليه السّلام، وبشأن أنواعٍ من الوحي، رؤيا النّوم، وما يُلْقي الحقّ جلّ وعلا في قلب المصطفى المختار من وحي، وإرسال جبريل - عليه السّلام - بالوحي.

ومن البيّن أنّ إرسال جبريل - عليه السّلام - بالوحي أسمى أنواع الوحي. وفي هذه الطّريقة نزل القرآن الكريم الّذي يهدي إلى الطّريقة الّتي هي أقوم. وفي هذه المعاني تحدّثت الآيتان الكريمتان الأخيرتان في السّورة الكريمة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

وكما أوحينا إلى النبيّين السّابقين والمرسلين أوحينا إليك يا محمّد روحاً من أمرنا الّذي أمرناك به، ووحياً من عندنا هو القرآن الكريم الّذي تبيّنه السّنّة النّبويّة المطهّرة الموحى بها هي الأخرى. وهذا الوحي للنّفوس بمنزلة الرّوح الّتي تحيا بها الأجساد. وما كنت يا محمّد تدري قبل الإيحاء إليك ما القرآن الكريم والكتاب العزيز، ولا الإيمان على التّفصيل الّذي جاءك به الوحي. ولكن جعلنا الكتاب العزيز نوراً يبدّد ظلمات الشّرك والضّلال والجهل، نهدي به من نشاء من عبادنا الّذين جاهدوا فينا، وأخلصوا النّيّة والعمل في الاتّجاه إلينا، والإقبال علينا. وإنّك يا محمّد لتهدي بالوحي إلى صراطٍ

مستقيم، وطريقٍ قويم، ودين الإسلام العظيم، صراط الله تعالى الذّي له ما في السّموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيدا، والّذي له وحده دون سواه الخلق الأمر. ألا إلى الله تعالى تصير الأمور يوم القيامة، وتعود الخلائق لفصل الحساب. فبادروا أيّها النّاس إلى الإيمان وعمل الصّالحات واهتدوا بنور القرآن الكريم واستعدّوا للقاء الله تعالى يوم الحساب.

وهكذا تتحدّث السّورة الكريمة في نهايتها كما تحدّثت في بدايتها عن الوحي والقرآن الكريم الرّوح الّذي أوحاه الله تعالى إلى حبيبه - صلّى الله عليه وسلّم - والنّور المبين الّذي أنزله والّذي يهدي إلى صراط الله تعالى الموصل إلى جنّات النعيم.

والتّذييل في آخر آيات السّورة الكريمة يشير إلى يوم القيامة وإلى البعث بعد الموت الّذي يصرّ كفّار مكّة ومن شاكلهم على إنكاره. إنّ كلّ الأدلّة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قدير على كلّ شيء، ومن ذلك بعث الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء، والثّواب أو العقاب.

** تعقيب:

نودّ أن نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعّلقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الشّورى من المكّيّ من القرآن الكريم الّتي نزلت على المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - قبل الهجرة[١].

٢- تسمّى السّورة الكريمة كذلك: حم عسق[٢] .

٣- عدد آيات السّورة الكريمة ثلاثٌ وخمسون آية. وعدد كلماتها ثمانمئة وستُون كلمة. وعدد حروفها ثلاثة آلاف وثمانية وثمانون حرفاً[٣].

٤- سورة الشّورى ثالث سور آل حم السّبع الّتي رُتِّبتْ في المصحف الشريف وفق ترتيب نزولها[٤].

٥- سمّيت السّورة الكريمة سورة الشّورى لقول الحقّ جلّ وعلا في نعوت المؤمنين في الآية الكريمة الثّامنة والثّلاثين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وسميت: حم عسق لابتداء السّورة الكريمة بهذه الحروف الخمسة المقطّعة.

---

[١] الإتقان ٤٣/١، وتفسير ابن كثير ١٧٧/٧ ، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٩/٢٥.

[٢] الإتقان ٤٣/١ وتفسير الطّبري ٥/٢٥و٢٩ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٩/٢٥.

[٣] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢٥ /١٩.

[٤] الإتقان ٤٣/١ .

٦- سورة الشّورى تبدأ بالحروف الخمسة المقطّعة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ في حين تبدأ كل سور آل حم الستّ الباقية بالحرفين المقطّعين: {حمٓ}.

٧- سورة الشّورى المكّيّة تُعْنى بما يُعْنى به المكّيّ من القرآن الكريم ممّا له عَلاقةٌ بتقوية أسس العقيدة. ويصحّ أن يكون موضوع التّوحيد المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة. ومنْ موضوعات السّورة الكريمة القرآنُ الكريمة الّذي لا يصدّق به كفّار مكّة وكافرو أهل الكتاب، والبعثُ بعد الموت الّذي لا يؤمن به الكافرون عموماً، كفّار مكّة خصوصاً، والحديثُ عن ثواب المؤمنين يوم القيامة وعذاب الكافرين، مع غلبة الحديث عن عذاب الكافرين، ليس في الآخرة فقط، ولكن في الدّنيا أيضا، لأنّ الإنذار هو الغالب على السّورة الكريمة. وبسبب إصرار الكافرين على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى يكون في السّورة الكريمة حديث متتابع في أنواع من آيات الله تعالى في السّماء والأرض والبرّ والبحر، وترهيب للكافرين، وترغيب للمؤمنين، وتسلية للمصطفى - صلّى الله علية وسلّم - ، وحديث مستفيض عن نعوت الإنسان المؤمن، وعن صفات الإنسان الجنس الكافر، الكفور، الظّالم الباغي. وفي السّورة الكريمة وصف للطبائع المختلفة للنّفوس. وقد يكون الحديث في الموضع الواحد شاملاً لأكثر من موضوعٍ أو قضيّة، جرياً على عادة القرآن الكريمة.

٨- في السّورة الكريمة حديث مستفيض عن القرآن الكريم. وفيها تفصيل لأنواع الوحي بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم. ويأتي الحديث عن القرآن الكريم في أوّل السّورة الكريمة، وفي أثنائها، وفي آخرها.

بعد أن ابتدأت أن السّورة الكريمة بالحروف الخمسة المقطّعة: ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾ جاء في الآية الكريمة الثّالثة الانتصار القرآن الكريم فورا. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾ وتأكّد المعنى ذاته في الآية الكريمة السّابعة. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ ﴾ وأهل الكتاب في شكٍّ من كون القرآن الكريمة كلام ربّ العالمين مع أنّ محمّداً – صلّى عليه وسلّم – مكتوب نعتُهُ كلٍّ من التّوراة والإنجيل، جاء في الآية الكريمة الرّابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ والله تعالى أنزل القرآن الكريم بالحقّ وأنزل العدل. جاء الآية الكريمة السابعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ۝١٧ ﴾ والله تعالى هو الّذي أوحى بالقرآن الكريم لمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، ومحمّد – صلّى الله عليه وسلّم – لم يأت القرآن الكريم من عند نفسه. ولو فرض أنّه عليه الصّلاة والسّلام تقوّل على الله تعالى بعض الأقاويل لَطَبَعَ على قلبه وسلبه وما أَوْحي إليه ولكنّ محمّداً – صلّى الله عليه وسلّم – هو الصادق الأمين.

والله تعالى يحقّ الحقّ ويزهق الباطل. جاء في الآية الكريمة الرّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤ ﴾ والله تعالى يهلك الكافرين لينتقم منهم وليعلم الّذين يجادلون في القرآن الكريم أنّهم ما لهم من ملجأٍ من الله تعالى ولا مهرب،

جاء في الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ وما ينبغي لواحدٍ من ا لبشر أن يكلّمه الله تعالى إلا وحياً في اليقظة في هيئة الإلهام. أو في المنام في هيئة الرّؤيا، أو من وراء حجابٍ كما جرى لموسى عليه السّلام، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه جلّ وعلا ما يشاء. والقرآن الكريم نزل في أسمى طرق الوحي بوساطة الرّسول من الملائكة جبريل عليه السّلام، فليس القرآن الكريم إلهاماً في اليقظة، ولا رؤيا منام، ومحمّدٌ - صلّى الله عليه وسلّم - يَهْدي بالقرآن الكريم إلى صراط الله تعالى المستقيم. جاء في نهاية السّورة الكريمة في الآيات الكريمات من الحادية والخمسين إلى الثّالثة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾

٩- في السّورة الكريمة حديث مستفيض عن قضيّة التّوحيد. وقضيّة التّوحيد تكاد تكون المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة، والقضيّة الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة بأكثر من أيّ قضيّة أخرى. ومن المعروف أنّ القرآن الكريم ثلاثة أقسام، توحيد وقَصَص وأحكام، وأنّ كلاًّ من القصص والأحكام يخدم قضيّة التّوحيد، الهدف الأوّل للقرآن الكريم.

بعد ابتداء السّورة الكريمة بالحروف الخمسة المقطّعة والإيمان إلى القرآن الكريم الّذي أوحاه الحقّ جلّ وعلا العزيز في ملكه الحكيم في صنعه يتحوّل الحديث إلى قضيّة

التّوحيد. إنّ لله تعالى وحده دون سواه ما في السّموات وما في الأرض، وهو الأعلى من كلّ عليّ، الأعظم من كلّ عظيم، المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه دون سواه. إنّ الكون كلّه يسبّح بحمد الله تعالى، ما فقهنا تسبيحه وما لم نفقه، ولا يشذّ عن هذه القاعدة سوى مشركي مكة ومن لفّ لفّهم، الّذين يشركون الآلهة المزعومة في العبادة مع الله تعالى الّذي بيده مفاتيح خزائن السّموات والأرض، والّذي ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير. جاء في الآيات الكريمات من الرّابعة إلى الثّانية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

والله تعالى أرسل جميع النّبيّين والمرسلين بدين الإسلام وعقيدة التّوحيد ابتداءً بنوحٍ -عليه السّلام- أوّل الرّسل وأوّل أولي العزم منهم، وانتهاءً بمحمّد - صلّى عليه

وسلّم- خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وزعيم أولي العزم منهم. والدّليل على أنّ محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - زعيم أولي العزم من الرّسل أنّ السّياق بعد أنّ ذكر اسم نوحٍ - عليه السّلام - بصفته أوّل المرسلين قفز إلى خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ سرد الثّلاثة الباقين مرتّبين تأريخيّاً، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. وحينما لم يكن الابتداء بأوّل أولي العزم من الرّسل ضروريّاً كان الابتداء بخاتمهم وزعيمهم محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم -، وذلك في الآية الكريمة السّابعة من سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة، الموضع الآخر والأخير في القرآن الكريم الّذي يجيء فيه أولو العزم من الرّسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّدٌ - صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين - وقد تفرّق أتباع الرّسل بسبب البغي بينهم وليس بسبب نقص الحجّة. والشيء ذاته قال عن اليهود والنّصارى الّذين هم في شكٍّ مريبٍ من القرآن الكريم ومن محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - .

وقد أمر الحقّ - جلّ وعلا - حبيبه - صلّى الله عليه وسلّم - بمجموعةٍ من الأوامر عليه أن يلتزم بها - عليه الصّلاة والسّلام - في تبليغ الدّعوة، ووعد جلّ وعلا الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى بخزي الدّنيا والآخرة. جاء في الآيات الكريمات من الثالثة عشرة إلى السّادسة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِى شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

والله تعالى القويّ العزيز لطيف بعباده يرزق من يشاء منهم، واقْصِدوا بأعمالكم الصّالحة وجه ربّكم الأعلى، أمّا الآلهة المزعومة ليس لها حق في أيّ شيء. جاء في الآيات الكريمات من التّاسعة عشرة إلى الحادية و العشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

والله تعالى هو الّذي يقبل التّوبة عن عباده العفوّ الغفور، يثيب المؤمنين ويعذّب الكافرين، ويرزق عباده، ويتزّل الغيث، له وحده دون سواه الخلق والأمر في الأولى والآخرة، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه سبحانه. جاء في الآيات الكريمات من الخامسة والعشرين إلى الخامسة والثّلاثين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ

فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾

ولله تعالى مُلك السّموات والأرض يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد. جاء في الآيتين الكريمتين التّاسعة والأربعين والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا ۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾

وإنّه بضمّ حديث الآية الكريمة الحادية عشرة عن الأزواج من البشر والأنعام إلى حديث هاتين الآيتين الكريمتين اللّتين تتحدّثان عن الزوجيّة في حقّ الأولاد وكونهم ذكوراً وإناثاً يصحّ لنا أن نتبيّن أنّ حديث سورة الشّورى في معنى الزّوجيّة من أجل تأكيد وحدانيّة الله تعالى هو الأعمق والأشمل في القرآن الكريم. خاصّةً وقد تبيّن أنّ الزّوجيّة قانون يسري على المخلوقات كلّها مروراً بالإنسان، والحيوان، والنّبات، والجماد. إنّه ليس ثمّة من واحدٍ سوى الله تعالى الّذي ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير. جاء في الآية الكريمة الحادية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا ۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ ۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

١٠- في السّورة الكريمة حديث مستفيض عن يوم القيامة وملابساته، وعن عذاب الكافرين وثواب المؤمنين، والمعروف أنّ المشركين وفي مقدّمتهم كفّار مكّة لا يؤمنون بالبعث ولا يعملون ليوم القيامة وما بعد الموت. إنّ القرآن الكريم ينذر يوم الجمع الّذي يُحْيي الله تعالى فيه الموتى. جاء في الآيات الكريمات من السّابعة إلى العاشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ ﴾.

والله تعالى يفصل بين الخلائق يوم الجمع القريب، لأن كلّ آتٍ قريب ويستعجل به المشركون استهزاءً، ويشفق منه المؤمنون، ويوم القيامة يطمئنّ المؤمنون ويشفق الكافرون، ويثاب المؤمنون ويعاقب المشركون، جاء في الآيات الكريمات من الرّابعة عشرة إلى الثّالثة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ

وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

والله تعالى هو الّذي يقبل التّوبة عن عبادة ويعفو ويغفر ويثبت المؤمنين ويزيدهم من فضله ويعذّب الكافرين. جاء في الآيتين الكريمتين الخامسة والعشرين والسّادسة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

الله تعالى قدير على جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء. جاء في الآية الكريمة التّاسعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

والله تعالى يهلك الكافرين ليعاقبهم ويَعْلَمَ الّذين يجادلون في آيات القرآن الكريم أنّهم ليس لهم مهرب من الله تعالى.

وما عند الله تعالى خير وأبقى للمؤمنين. جاء في الآيتين الكريمتين الخامسة والثّلاثين والسّادسة والثّلاثين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

والمشركون هم الأذلّة في النّار يوم القيامة، والمؤمنون هم الأعزّة في جنّات النّعيم. جاء في الآيات الكريمات من الرّابعة والأربعين إلى السّابعة والأربعين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

وإلى الله تعالى تصير الأمور يوم القيامة. جاء في الآيتين الكريمتين الثّانية والخمسين والثّالثة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

١١- من موضوعات سورة الشّورى الكريمة تسلية المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم-، في هذه الفترة المكّيّة الّتي كان المشركون يسومون فيها المسلمين سوء العذاب. وتكون التسلية غير مباشرةٍ حيناً ومباشرة حيناً آخر. وقد جاء في الآية الكريمة العشرين بعد المئة من سورة هود المكّيّة. قول الحقّ جل وعلا: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ وقد جاء في الآية الكريمة الرّابعة عشرة من الشّورى ذكر أولي العزم الخمسة من الرّسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن أهمّ ما يتصف به أولو العزم من الرّسل الصّبر.

وإنّ آخر آية في سورة الأحقاف وهي الآية الكريمة الخامسة والثّلاثون، وسورة الأحقاف آخر سور آل حم السّبع، إن آخر آية يجيء فيها أمر محمد بن عبد الله -صلّى الله عليه وسلّم - بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل. قال عزّ من قائل: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وفي ذكر آية سورة الشّورى أسماء أولي العزم من الرّسل السّابقين تسلية للنّبي- صلّى الله عليه وسلّم - غير مباشرة، وتثبيت لفؤاده - عليه الصّلاة والسّلام -. ومن باب التسلية غير المباشرة حديث السّورة الكريمة المستفيض عن القرآن الكريم الموحى به إليه - صلّى الله عليه وسلّم - في أسمى طرق الوحي، وعن الوحي بأنواعه بشأن سائر

النبّيين والمرسلين السّابقين، عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. ومن باب التّسلية غير المباشرة كذلك الحديث المستفيض في السّورة الكريمة عن عذاب الكافرين الأليم في الأولى والآخرة، ونعيم المؤمنين المقيم، في جنّات الخلود.

ونستطيع أن نعد من التّسلية المباشرة له – صلّى الله عليه وسلّم – إخبار الحقّ جلّ وعلا حبيبه – صلّى الله عليه وسلّم – بأنّه عزّ وجلّ لو شاء لجعل النّاس أمةً واحدةً على الهدى ولكن الله تعالى يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، فعليك يا محمّد ألاّ تذهب نفسك على المشركين حسرات. جاء في الآية الكريمة الثّامنة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

وكفّار مكّة الّذين يمثّلون جنس الإنسان الكافر الكفور للنّعم الظّالم الباغي لم نرسلك يا محمّد عليهم حفيظاً ولا مسيطراً لكن أرسلناك مبلغاً وقد فعلت فكفاك تبليغ الرّسالة، وتأدية الأمانة، والنّصحّ للأمّة، فلا تقتل نفسك حزناً لإعراضهم عن دعوتك إلى صراط الله تعالى المستقيم. جاء في الآية الكريمة الثّامنة والأربعين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾.

وجاء في الآية الكريمة السّادسة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾.

١٢- جاء في سورة الشّورى الكريمة مجموعة من النّعوت للّذين آمنوا الّذين عليهم أن يرجوا ما عند الله تعالى وهو خير وأبقى من متاع الدّنيا الزّائل، كما جاء فيها تبيين لبعض الطبائع المختلفة للنّفوس، إنّ من النّاس من يطلب الفضل ويرجو الثّواب الجزيل

من الله تعالى فيعفو عمّن ظلمه ويقابل السّيّئة الحسنة.وإنّ من النّاس من يطلب العدل ولا ترضى نفسه بغير ذلك، وإنّ القرآن الكريم ليُعْطي هذا الفريق من النّاس هذا الحق، ويمنعه من الّذي يريد أن يظلمه ويبغي عليه. وفي الوقت ذاته يرشده إلى الفضل وينصحه به. وهذا التّبيين في القرآن الكريم لبعض الطبائع المختلفة للنّفوس يجيء في أثناء حثّ السّورة الكريمة المؤمنين على إيثار الآخرة الباقية، وعلى التّحلّي ببعض النّعوت. جاء في الآيات الكريمات من السّادسة والثّلاثين إلى الثّالثة والأربعين قول الحقّ جلّ علا: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ وواضح أنّ هذه النّعوت الّتي يتصّف بها المسلمون تشمل كلاً من العقيدة والعبادة والأخلاق والسّلوك والمعاملة.

ولمّا كان من أهم أهداف الآيات الكريمات حثّ الّذين آمنوا على أن يتجاوزوا والعدل إلى الفضل بأن يدفعوا بالحسنة السّيّئة، وأن يحسنوا إلى من أساء إليهم فإنّا يصحّ أن نعتبر الآيات الكريمات من سورة فصّلت الكريمة من الثلاثين إلى السّادسة والثّلاثين وأن نعدّها امتداداً لهذا الصّرح الأخلاقي الإيمانيّ في سورة الشّورى. جاء في سورة فصّلت قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ
صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ إنّ قمّة السّمو الأخلاقيّ دفع السّيّئة بالتّي هي أحسن ابتغاء مرضاة الله تعالى، وإخزاء لشيطان كلٍّ من الجنّ والإنس. وإنّ قمّة العمل الصّالح الدّعوة إلى الله تعالى.

وكما بيّنت آيات سورة الشّورى الكريمة بعض الطّبائع المختلفة للنّفوس في حقّ المؤمنين، بينت بعض الطبائع المختلفة للنّفوس في حقّ الظّالمين. إنّهم ظالمون باغون كافرون مشركون. وإنّ كفّار مكّة بمثابة الرّمز الّذي تتمثّل فيه كلّ تلك الصّفات السّيّئة وتتجسّد. وممّا جاء في حقّ هذا الجنس الكافر من الناس قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثّامنة والأربعين: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

١٣- يجيء في تذييل عددٍ من الآيات الكريمات صفتان للذّات العلية تعمّقان فحوى الآية الكريمة. والمعروف أنّ للذّات العليّة اسماً واحداً هو"الله " وأنّ تمام التّسعة والتسّعين اسماً إنّما هي صفات للذّات العليّة. وإذا كان لفظ الجلالة: "الله" عظيم أسماء الباري

جلّ وعلا، فإنّ:"الرحمن" عظيم صفاته عزّ وجلّ. جاء في الآية الكريمة الثّالثة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ﴾.

ولا يخفى أنّ صدر الآية الكريمة يشتمل على معنيين اثنين. وجاء في الآية الكريمة الرّابعة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ ﴾ ولا يخفى أنّ صدر الآية الكريمة يشتمل على معنيين أحدهما يتعلّق بالسّماء، وأنّ الصّفة الأولى في التّذييل تتعلّق بالعلو وهو أهمّ سمات السّماء. وجاء في الآية الكريمة الخامسة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾ إنّ الملائكة الأطهار تستغفر الله تعالى الغفور الرّحيم لمن في الأرض من المؤمنين. وجاء في الآية الكريمة الحادية عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١ ﴾ ولا يخفى أنّنا بصدد السّماء والأرض. وبصدد الأزواج من الإنسان والحيوان. وعن طريق التّزاوج يتمّ التّكاثر وهذه المعاني الثّنائيّة تتعلّق بالإنسان والحيوان والجماد، وكذلك بالنّبات الّذي ترعاه الأنعام في المقام الأوّل. وقد تبيّن للعلماء أنّ المخلوقات كلّها تتألّف من ذكرٍ وأنثى وتتفاعل. أمّا ما يتعلّق في الآية الكريمة بالذّات العليّة فمعنيان اثنان. إنّ الله تعالى ليس كمثله شيء وليس لشبهه مثيل ومن باب الأحرى والأوْلى ألاّ يكون للذّات العليّة مثيل. وهذا القول: (ليس كمثله شيء) ينفي التّشبيه للذّات العليّة. وإنّ الله تعالى هو السّميع سمعاً يليق بجلاله وعظمته، البصير بصراً يليق بجلاله وعظمته. وهذا القول: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١ ﴾ ينفي التّعطيل. وإذا كان صدر الآية الكريمة يثبت الزّوجيّة والثّنائيّة لكلّ المخلوقات، فإنّ القول: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ

شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ يثبت الوحدانيّة لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وجاء في الآية الكريمة التّاسعة عشرة قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ ومن متعلّقات اللّطف المعرفة التّامّة بدقائق الأمور، والدّقة في معالجة الأمور، والرّفق في هداية العباد[1] وكأنّ وصف الذّات العليّة بالقوّة يعمّق معنى اللّطف بالعباد، وكأنّ وصف الذّات العليّة بالعزّة يعمّق معنى رزق الله تعالى من يشاء من عباده. وجاء في الآية الكريمة الثّالثة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى غفور ذنب من تاب من ذنبه واستغفر، شكور لمن شكر لله تعالى نعمه فأحسن النّيّة والقول والعمل. وجاء في الآية السّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ وواضح أنّ صدر الآية الكريمة يتألّف من معنيين اثنين وأنّ عجزها يشتمل على صفتين للذّات العليّة وأنّ الأولى للأُولَى والأُخرى للأخرى.

وجاء في الآية الكريمة الثّامنة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ وواضح تعميق صفة الولاية والحفظ معنى إنزال الغيث بعد القُنوط، وتعميق صفة الحمد معنى نشر الرّحمة

[1] انظر – مثلاً – مفردات الراغب الأصفهاني : "لطيف" ٢ / ٥٨٠ .

والخير ثمرةً للغيث. وجاء في الآية الكريمة الخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ وواضح تعميقُ كلٍّ من الصّفتين في التّذييل للمعنى الّذي يقابلها في الصّدر. وجاء في الآية الكريمة الحادية والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ إنّ الله سبحان وتعالى الأعلى من كلّ عليّ الأحكم من كلّ حكيم هو الّذي يصطفي بالوحي وبالكلام من وراء حجابٍ من يجتبي من عباده ويختار، لا رادّ لفضله، ولا معقّب لحكمه سبحانه.

١٤- بعد هذه الجولة الواسعة مع سورة الشّورى المكّيّة الكريمة نودّ أن نبيّن بإيجاز التّرابط بين أجزائها ووحدتها العضويّة أو الموضوعيّة. بعد ابتداء السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة جاء الانتصار للقرآن الكريم فوراً. وقد بيّن السّياق خضوع الكون لله تعالى وتسبيحه بحمده من السّموات والأرض ومن فيهما من الملائكة الأطهار والمؤمنين الأبرار وما فيهما ممّا لا نفقه تسبيحه. ولا يشذّ عن هذه القاعدة سوى المشركين. ويسلي السياق المصطفى - صلى الله عليه وسلّم - الّذي تكاد تذهب نفسه حسراتٍ بسبب إعراضهم عن صراط الله تعالى الّذي له ما في السّموات والأرض، وينعى عليهم عبادة الآلهة العاجزة وإشراكها في العبادة مع الله تعالى الّذي بيده كلّ شيء، والّذي سيحاسبهم في الآخرة ويعاقبهم، والّذي ليس كمثله شيء وهو عزّ وجلّ السّميع البصير.

والله تعالى الّذي أرسل محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - بدين التوّحيد وهو الّذي أرسل كلّ النبيين والمرسلين السّابقين بهذا الدّين، وفي مقدّمتهم أولو العزم من الرّسل الّذين يمتازون بالصّبر في المقام الأوّل. ويقرّر السّياق أنّ الأتباع السّابقين اختلفوا بسبب

البغي بينهم وليس بسبب نقص الحجّة، وفي ذلك تحذير للمسلمين من الاختلاف. ويأمر السّياق المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم – بمجموعةٍ من الأوامر في دعوته إلى الله تعالى، ويحذّر الكافرين والصّادّين عن سبيل الله تعالى، من سوء المصير، فعلى الناس أجمعين أن يؤمنوا ويتّبعوا الهدي السّماويّ، ويحكمه بالعدل، ويعملوا ليوم القيامة الّذي لا ريب فيه. وعلى الرّغم من إعراض المشركين عن الله تعالى فإنّ الحقّ جلّ وعلا اللّطيف بعباده يرزقهم كما يرزق كلّ دابّةٍ في الأرض ولا يترك عزّ وجلّ أحداً دون أن يرزقه.

وتجاه إصرار المشركين على شركهم يستمرّ السياقّ في النّعي عليهم شركهم، ويحذّرهم من يوم القيامة، ويقارن بين مصيرهم السّيّئ و مصير المؤمنين الحسن. وتجاه اتهامهم للمصطفى – صلّى الله عليه وسلمّ – بأنهّ افترى على الله تعالى كذباً حينما يقول : إنّ القرآن الكريم كلامه عزّ وجلّ يدحضن السّياق افتراء المشركين، ويقرّر أن القرآن الكريم هو الحقّ من ربّ العالمين، ويفيض السّياق في ذكر مجموعةٍ من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ.

ومن هذه الآيات خلق السّموات والأرض وما فيهن ومن فيهنّ، وإنزال الغيث، وتسيير السّفن في البحر، ولطف الله تعالى بعباده في البرّ والبحر. ويحذّر السّياق الظّالمين من عذاب الله تعالى الشّديد في الأولى بالمصائب الّتي تصيبهم وفي الآخرة في نار جهنّم.

وبقصد حمل المشركين على الإيمان وبلوغ أعلى الدّرجات يذكر السّياق بعض نعوت المؤمنين، ويغوص في أعماق النّفوس، ويحث على الفضل في التّعامل، ويسمح للإنسان أن يأخذ حقّه بالعدل، ويحثّه على الفضل بالعفو، وينهي عن الظلم وكلّ الصّور. وهذه النّعوت تتعلّق بالعقيدة، والعبادة، والأخلاق، والسّلوك، والمعاملة.

ويصرّ المشركون على إعراضهم، وتلاحقهم رحمة الله تعالى. إنّ السّياق الّذي بشّر المؤمنين بحسن المصير، حذّر المشركين من سوء المصير، ووصف حالهم الكئيب يوم القيامة وهم يُعْرَضون على النّار وبئس القرار.

وبسبب إصرار الكافرين على الإعراض يسلّي السّياق المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم-، ويبيّن أنّ هذه هي حال جنس الإنسان المشرك الكفور للنّعم الظّالم. وتظلّ رحمة الله تعالى تطارد المشركين بقصد أن يتدبّروا الأمر، فيلفت انتباههم إلى ملك لله تعالى السّموات والأرض، وإلى مظهرٍ من مظاهر قدرته عزّ وجلّ، وهو خلقه عزّ وجلّ الذّكر والأنثى، ومنحه عزّ وجلّ بعض الآباء والأمّهات الإناث، أو الذّكور أو الجنسين معاً: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ إنّ هذه الحقائق يعرفها كفّار مكة جيداً ويعيشونها. وإن التّركيز على الثّنائيّة بشأن المخلوقات في نهاية السّورة وفي أثنائها بقصد تعميق مسألة التّوحيد المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة.

وتختم السّورة الكريمة بالحديث عن الوحي الّذي ابتدأت به، وتقرّر أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى وأنّ محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - رسوله، يهدي إلى صراطه عزّ وجلّ بإذنه وفي ذلك تسلية للنبيّ - صلّى الله عليه وسلّم-.

وتختم آخر آيات السّورة الكريمة بالقول: ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ فكلّ الأمور تصير إلى الله تعالى وبخاصّة يوم القيامة الّذي ينكره المشركون ولا يعملون من أجله. إنّ على النّاس جميعاً أنّ يؤمنوا ويعملوا صالحاً من أجل أن يثابوا ويدخلوا جنّات النّعيم بفضل الله تعالى ورحمته.

وممّا ساعد على ترابط المعاني في السّورة الكريمة تكرار بعض الألفاظ والعبارات. ومن ذلك في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّانية والخمسين: ﴿كَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

واسم الإشارة:(ذلك) في الآيتين الكريمتين الثّانية والعشرين والثّالثة والعشرين. ولفظ الجلالة:(الله) الّذي ابتدأت به الآيتان الكريمتان السّابعة عشرة والتّاسعة عشرة. والقول:(وهو الّذي) الّذي ابتدأت به الآيتان الكريمتان الخامسة والعشرون والثامنة والعشرون. والقول: (من آياته) الّذي ابتدأت به الآيتان الكريمتان التّاسعة والعشرون، والثّانية والثلاثون. واسم الموصول المسبوق بلام العطف: (للّذين) أو بواو العطف: (والّذين) في الآيات الكريمات السّادسة والثلاثين والسّابعة والثّلاثين، والثّامنة والثّلاثين، والتّاسعة والثّلاثين. وهكذا .

ثالثاً

سورة الزّخرف

۞ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾
أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾
وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ
بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ
رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا
لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم
بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ

مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ
مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟
خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا
عَبَدْنَٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ
كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ
ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى
عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ

رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ
بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ
لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن
ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى
وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ
ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى
ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم
مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ
وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ

أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا
هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ
مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ
هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ
أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾
۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ

لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا
تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم
بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ
ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾
ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا
خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ
عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ

وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم
مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟
أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ
رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟
وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى
ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بين يدي التفسير

(١)

"يصرّ كفّار مكّة على استهزائهم بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وإنكارهم البعثَ وشركهم رغم إقرارهم بتوحيد الرّبوبيّة"

الآيات (١-١٤)

تبدأ سورة الزّخرف المكّيّة الكريمة بالحرفين المقطّعين اللذين تبدأ بهما كلّ سور آل حم السّبع (حم) وسورة الزّخرف هي السّورة الرّابعة من سور آل حم. ويأتي فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور. إنّ الحقّ جلّ وعلا يقسم بالكتاب العزيز المبين عن معانيه وأغراضه. لقد جعل الحقّ عزّ وجلّ هذا الكتاب العزيز قرآناً بلسان عربيّ مبين عن المعاني والأغراض، مقروءاً بالألسنة، محفوظاً في الصّدور، كما أنّه محفوظٌ في السّطور، لعلّ العرب ابتداءً، وهم مادّة الإسلام الأولى، يعقلون معاني هذا الكتاب العزيز، ويدركون مراميه، ويقومون بما يجب عليهم من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة عليهم، وذلك بنشر دين الإسلام العظيم في الخافقين. وكما أنّ هذا الكتاب المبين عزيزٌ في الصّدور والسّطور، هو في اللّوح المحفوظ عليّ المكانة عند الله تعالى رفيع المنزلة.

وإزاء إعراض كفّار مكّة عن هذا القرآن الكريم الموحى به تباعاً إلى المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - يكون الاستفهام الإنكاريّ من الحقّ جلّ وعلا لأولئك المعرضين: أفنضرب عنكم الذّكر تجاوزاً لكم لأنكم كنتم قوماً مشركين؟! أنمسك عن إنزال مزيد من الوحي على محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - تجاهلاً لكم، احتقاراً لشأنكم، لأنّكم

كنتم قوماً مسرفين على أنفسكم بارتكابكم الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك.

إنّ الحقّ جلّ وعلا أكرم من أن يأخذ المحسنين المؤمنين بجريرة المسيئين الكافرين. وها هي ذي آي الذّكر الحكيم تترل تباعاً حتّى عاد القرآن الكريم في الأرض على صورته الّتي كان عليها في اللّوح المحفوظ في السّموات العُلَى. وإنّ نزول المزيد من القرآن الكريم تباعاً على المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - ونزول القرآن منجّماً، أي مفرّقاً، يثبّت فؤاد المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم -. وممّا يثبّت فؤاده - صلّى الله عليه وسلّم - كذلك ويسلّيه حديث السّياق بعد ذلك عن الأمم السّابقة الّتي أهلكها الله تعالى بسبب تكذيبها.

ما أكثر الأنبياء الّذين أرسلهم الله تعالى في الأقوام الماضين. وكلّ نبيّ يأتيهم يستهزئون به ويسخرون منه. إنّك يا محمّد لستَ بِدْعاً من الرّسل والنّبيّين وقد أهلك الله تعالى المكذّبين السّابقين الأشدّ قوّة وبطشاً من كفّار مكّة، وغدوا عبرةً للمعتبرين، فهلاّ اتّعظ كفّار مكّة بما حلّ بالمكذّبين السّابقين الّذين يفوقونهم عدداً وعدّة وقوةً وبطشاً.

وكفّار مكّة يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة، ولئن سألتهم يا محمّد ويأيها الإنسان عمّن خلق السّموات والأرض ليكوننّ الجواب الصّحيح: (خلقهن العزيز العليم) والعجيب في كفّار مكّة أنّهم لا يبنون على الجواب الصّحيح الاعتقاد الصّحيح. إنّهم لا يوحّدون الله تعالى بأفعالهم. إنّهم يشركون مع الله تعالى الآلهة الزّائفة في العبادة، ويتورّطون في الشّرك، الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى.

وبقصد حمل المشركين على الإقرار بتوحيد الألوهيّة يفيض السّياق في ذكر نعوت الله تعالى العزيز العليم، مساعدةً للمشركين على الارتفاع إلى مستوى الإقرار بتوحيد الألوهية إثر الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة.

إنّ الله تعالى العزيز العليم هو الّذي جعل لكم يا كفّار مكّة ويأيّها النّاس الأرض كالمهد لأطفالكم، وجعل لكم فيها سبلاً ميسّرة لعلّكم تهتدون إلى غاياتكم. والله تعالى هو الّذي نّزل من السّماء ماءً مباركاً بمقدارٍ لا يزيد فيكون طوفاناً، ولا يقلّ فيموت الزّرع والضّرع، ويهلك الحرث والنّسل. لقد أنزل الله تعالى الماء من السّماء بمقدار الحاجة، فأحيا الله تعالى به الأرض الميتة فأنبتت من كلّ زوج بهيج. وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة بالماء في الأولى يحييكم في الآخرة ويخرجكم من قبوركم، فآمنوا بالبعث والنّشور، والحساب والجزاء، والثواب والعقاب. وكما هداكم الله تعالى في الأولى بالعلامات في الأرض والنّجوم في السّماء وذلك في مجال المحسوسات، هداكم بالقرآن الكريم الموحى به إلى محمّد - صلّى الله عليه وسلّم-، وذلك في مجال المعنويّات. إنّ المجاهدة منكم كما هي مطلوبة في المحسوسات، مطلوبة في المعنويّات.

ويلحظ أنّنا بصدد استدلالٍ بالسّموات والأرض، وبالماء النّازل من السّماء إلى الأرض. وهذه الثّنائيّة أو قانون الزّوجيّة عمقها النصّ على أنّ الله سبحانه وتعالى العزيز العليم هو الّذي خلق الأزواج كلّها. وقد تأكّد للعلم ما قرّره القرآن الكريم من كون قانون الزّوجيّة عامّاً وشاملاً للمخلوقات كلّها ابتداءً من الذّرّة، وانتهاءً إلى عظيم المخلوقات والمجرّات ولم يبق واحدٌ سوى الله تعالى العزيز العليم خالق كلّ شيء ومدبّره.

والله تعالى جعل لنا من السّفن في البحر، ومن الأنعام في البرّ، ما نركب عليه، لنستوي على ظهوره ونستقرّ ونتمكن ثمّ نذكر نعمة ربّنا جلّ وعلا إذا استوينا على ظهر ما نركب بحراً وبرّاً، ونهتف من أعماق قلوبنا: تنزيهاً لله تعالى الّذي سخّر لنا كلّ هذا عن الشّريك، وما كنّا لشيءٍ ممّا نركب عليه مطيقين وقادرين لولا فضل الله تعالى علينا ورأفته بنا. وإنّا إلى الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد لراجعون يوم القيامة.

ويلحظ صفة الزّوجيّة في السّفن والأنعام، والبحر، والبرّ، وصفة الثّنائيّة في المعاني وذلك في القول: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وفي القول: ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وإنّ قانون الزّوجيّة وثنائيّة المعاني معّمقان لوحدانيّة الحقّ جلّ وعلا الّذي ينبغي إفراده بالعبادة والعمل في الحياة الأولى من أجل الحياة الأخرى بعد أن يخرجنا الحقّ جلّ وعلا من قبورنا أحياء مرّةً أخرى، وننقلب إلى ربنا عزّ وجل لأجل الحساب والجزاء.

وهكذا يكون توحيد الله تعالى المحور الّذي تدور حوله الآيات الكريمات في القِسْم.

(٢)

"يصرّ كفّار مكّة على تقليد آبائهم المشركين، ولا يتّعظون بانتقام الله تعالى من المكذّبين السّابقين"

الآيات(١٥-٢٥)

رغم ذِكْر السّياق مجموعةً من نعوت الحقّ جلّ وعلا الّذي وصفه المشركون بأنّه: (العزيز العليم) بقصد حملهم على الإقرار بتوحيد الألوهيّة كما أقرّوا بتوحيد الرّبوبيّة يصرّ كفّار مكّة ومن شاكلهم على شركهم. إنّهم يجعلون لله تعالى من عباده جزاءً فيزعمون أنّ الملائكة بنات الله تعالى، ويعبدونَهم أو يعبدون الأصنام الّتي صوّرها على هيئة الملائكة، وفق تصوّرهم السّقيم وخيالهم المريض. إنّ جنس الإنسان لكفور لنعم الله تعالى عليه بيّن الكفران. أم أنّ الحقّ جلّ وعلا اتخذ لنفسه ممّا يخلق من الملائكة بناتٍ وأنتم لا تحبّون البنات، وخصّكم بالبنين الّذين تحبّونهم وتفضّلونهم على البنات! إنّكم أنتم الّذين جعلتم لله تعالى ما تكرهون، وجعلتم لأنفسكم ما تحبون، ثمّ زعمتم أنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي فعل هذا. إنّ الواحد من هؤلاء إذا بُشِّر بالأنثى الّتي ضربها الله تعالى مثلاً، بزعمه أنّ الملائكة بنات الله تعالى، والولد يشبه أباه في العادة، يظلّ وجهه مسودّاً من سوء ما بشّر به وهو كاظم همّه وغمّه. فكيف لا يرضى هؤلاء البنات لأنفسهم ويرضونهنّ للحقّ جلّ وعلا حظاً ونصيباً. أيجعلون لله تعالى من ينشّأ في الزّينة من البنات ومن هو في الخصام غير مُفْصِح ويجعلون لأنفسهم البنين.

ولماذا جعل المشركون الملائكة الّذين هم من خلق الرّحمن عزّ وجلّ إناثاً! أشهدوا خلق الله تعالى الملائكة إناثاً! ستكتب الملائكة الّتي تدوّن الأقوال والأعمال شهادتهم، ويُسْألون يوم القيامة عن شهادة الزّور الّتي أدلوا بها وسيعاقبون.

بل إنّ المشركين تجاوزوا ذلك الدّرك من الشّقاء إلى الزّعم بأنّ الحقّ جلّ وعلا لو شاء للمشركين عدم عبادة الملائكة ما عبدوهم. وبما أنّهم عبدوا الملائكة، فذلك دليلٌ على رضا والله تعالى عن عبادتهم الملائكة. إنّ هؤلاء المشركين يقولون بغير علمٍ ويكذبون فيما يقولون.

أم أنّ المشركين عبدوا الملائكة لأنّ الحقّ جلّ وعلا آتاهم كتاباً من قَبْل أن يترل القرآن الكريم، وفي ذلك الكتاب السّابق إذن لهم بالشّرك وبعبادة الملائكة وبالأصنام الّتي صاغها المشركون وفق تصوّرهم للملائكة، فهم بهذا الكتاب السّابق مستمسكون.

الحقيقة أنّهم قالوا : إنّا وجدنا آباءنا علي دينٍ وملّة، وإنّا على آثارهم مهتدون، ولخطواتهم، سواء كانت صواباً أم خطأً، مقتفون. وهكذا ما أرسل الله تعالى قبلك يا محمّد في قريةٍ من نذير إلاّ قال مترفوها، وأهل الثّراء فيها: إنّا وجدنا آباءنا علي دينٍ وملّه، وإنّا على آثارهم مقتدون.

ولا يخفى أنّنا بصدد تسليةٍ للمصطفى - صلّى الله عليه وسلّم -. لقد قال كلّ رسولٍ لقومه سابقاً، كما قال محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - لاحقاً: أتتّبعون آباءكم ولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم الضّالّين! قال المشركون إنّا بما أُرسلتمّ به أيّها المرسلون من توحيدٍ لله تعالى كافرون. فانتقم الله تعالى من المكذّبين السّابقين، فانظر يا محمّد بعقلك وبعين قلبك كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين الّذين دمّرهم الله تعالى تدميرا، فعلى قومك أن يعتبروا بالمكذّبين السّابقين.

وليس بخافٍ أنّنا بصدد مزيدٍ من التسلية وتثبيت الفؤاد للمصطفى - صلّى الله عليه وسلّم-.

(٣)

"أرسل الله تعالى محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بالرّسالة الأخيرة والكاملة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام"

الآيات (٢٦-٣٢)

استمراراً لتثبيت فؤاد المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - يتحوّل السّياق إلى الحديث عن إبراهيم - عليه السّلام -أبي الأنبياء وأحد أولي العزم من الرّسل. واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني بريءٌ ممّا تعبدون إلاّ الله تعالى الّذي أوجدني من العدم فإنّه سيهديني سواء السّبيل. وجعل إبراهيم - عليه السّلام - كلمة التّوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله في ذرّيّته، فلم يزل في ذريّته من يقولها من بعده، لعلّ المشركين يرجعون إلى توحيد الله تعالى. والمعروف أنّ العرب هم من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. وقد اصطفى الله تعالى من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة. واصطفى من بني كنانة قريشا. واصطفى من قريش بني هاشم. واصطفى محمداً - صلّى الله عليه وسلّم - من بني هاشم. وحينما كان النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - يتحنّث في غار حراء قبل البعثة، كان يعبد الله تعالى على دين إبراهيم عليه السّلام. وقد انحرفت قريش وسائر العرب كثيراً بحنيفيّة إبراهيم عليه السّلام. والله سبحانه وتعالى لم يعاجل أهل مكّة بالعقوبة بل أمهلهم رغم شركهم. لقد متّع الله تعالى مشركي قريش وآباءهم وأجدادهم حتّى جاءهم القرآن الكريم ومحمّدٌ - صلّى الله عليه وسلّم - الرّسول المبيّن للنّاس معنى ما نُزِّل إليهم من الوحي. ولمّا جاء الحقُّ كفّار مكّة قالوا : إنّ هذا القرآن سحرٌ وإنّا بهذا السّحر كافرون. وقالوا : إن كان نزول القرآن الكريم واجباً فهلاّ نُزّل على رجلٍ عظيم من أهل القريتين مكّة أو الطّائف بدلاً من أن

يترل على محمّدٍ الرّجل الفقير. أيَقْسِم كفّار مكّة رحمة ربّك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم! إنّ الّذي يقسم الرّحمة هو الله تعالى الّذي وسع كل شيءٍ رحمةً وعلماً، وهو جلّ وعلا الأعلم حيث يجعل رسالته. والله سبحانه وتعالى قسم بين البشر، وفيهم كفّار مكّة، معيشتهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ في الرّزق ليتّخذ بعضهم بعضاً أُجَراء وعاملين بمحض إرادتهم. وهكذا يقدّم بعضهم العمل وبعضهم المال. ورحمة ربّك أيها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، وأيها المؤمن، خيرٌ ممّا يجمع الكافرون والمعرضون عن الله تعالى من حطام الدّنيا.

وليس بخافٍ تسلية المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - في هذا القِسْم، والانتصار للقرآن الكريم أثناء السّورة الكريمة، إثر الانتصار للقرآن الكريم في صدرها.

(٤)

"هوان الدّنيا على الله تعالى، وتسليطه جلّ وعلا شياطين الجنّ على المعرضين عن القرآن الكريم، وما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين"

الآيات (٣٢-٤٥)

تعميقاً لمعنى القول الّذي خُتِمَتْ به آخر آيات القِسْم السّابق: { وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يتحوّل السّياق إلى ما يفيد هوان الحياة الدّنيا على الله تعالى ويؤكّد أنّها لا تعدل عنده عزّ وجلّ جناح بعوضة وإلاّ ما سقى كافراً منها شربة ماء.

إنه لولا أن يكون النّاس أمّةً واحدةً كافرةً ولولا أن يُفْتَنَ المؤمن عن دينه لجعل عزّ وجلّ لمن يكفر بالرّحمن لبيوتهم من الفضّة بل من الذّهب سُقُفاً، وسلالم يصعدون عليها، وأبواباً، وسرراً يتّكئون عليها. وما كلّ ذلك إلاّ متاع الدّنيا الزّائل. والآخرة عند ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن للمتّقين.

وإنّ الّذين ينصرفون عن الله تعالى يزيدهم جلّ وعلا انصرافا، إنّ من يصيبه عمى البصيرة عن نور القرآن الكريم يهيّئ الله تعالى ويسلّط عليه شيطاناً فهو له مصاحب ومرافق. وإنّ هؤلاء الشّياطين ليصدّون المشركين عن سبيل الهدى، وإنّ المشركين والضّالّين عن سواء السّبيل يظنّون أنّهم مهتدون. حتى إذا جاء المشركُ الحقَّ جلّ وعلا في يوم القيامة الّذي أنكره و لم يعمل من أجله قال لقرينه الشّيطان: يا ليت بيني وبينك من البعد مثل ما بين المشرق والمغرب، فقد كنت لي في الدّنيا بئس الصّاحب، وأنت لي اليوم بئس الصّاحب أيضاً.

ولن ينفعكم يوم القيامة إذ أشركتم أنّكم في عذاب نار جهنّم مشتركون. إنّ لكلٍّ نصيبَه الخاصَّ به من العذاب الّذي يستوفيه وَحْدَه كاملاً غير منقوص.

وأنت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، يا من توشك أن تقتل نفسك بباعث الحزن لإعراض قومك عنك، ليس عليك إلاّ البلاغ المبين. إنّك لا تستطيع أن تُسْمع صوت الحقّ سماع قبول من لا يريد أن يسمع صوت الحقّ سماعاً مجرّداً وكأنّه وُلِدَ أصمَّ لا يسمع. وإنّك لا تستطيع أن تهدي إلى طريق الهدي من لا يريد أن يرى نور الحقّ وكأنّه وُلِد أكمه لا يُبْصر، ومن هو في ضلالٍ مبينٍ وواضح ولكنّه أعمى البصيرة.

فإمّا نذهبنّ بك إلى جوارنا فإنّا منهم منتقمون. وإمّا نرينّك في حياتك الّذي وعدناهم من القتل والأسر والخزي فإنّا عليهم مقتدرون. وقد فعل الحقّ جلّ وعلا ذلك بهم في حياة المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم –. فاستمسك يا محمّد بالقرآن الكريم

الّذي أُوحِيَ إليك، وبدين الإسلام الّذي أرسلتك به، فإنّك على صراطٍ مستقيم، وطريقٍ قويم. وإنّ هذا القرآن الكريم لشرف لك ولقومك الذّين نزل القرآن الكريم بلسانهم، وسوف تُسْألون يا من نزل القرآن الكريم بلسانكم ويا مادّة الإسلام الأولى عمّا قدّمتم أو أخّرتم في جنب القرآن الكريم، ودين الإسلام العظيم.

وأنت يا محمّد تستطيع أن تسأل مؤمني أهل الكتاب إن شئت: أجعل الحقّ جلّ وعلا مِنْ دونه عزّ وجلّ آلهةً زائفةً تُعبَد. إنّ الحقّ جلّ وعلا أرسل كلّ الرّسل بدين التّوحيد. وإنّ المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - لم يكن بحاجةٍ إلى أن يَسْأل لأنّ وجه الحقّ واضحٌ أبلج.

(٥)

"أهلك الله تعالى فرعون وملأه وجعلهم عبرةً للأوّلين والآخرين"

الآيات (٤٦-٥٦)

كان الإذن للمصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - أن يسأل مؤمني أهل الكتاب من اليهود والنّصارى إن شاء ويلقي عليهم سؤالاً معيّناً موطّئاً لتحوّل السّياق إلى الحديث عن موسى وعيسى عليهما السّلام.

وكان الحديث أوّلاً عن موسى - عليه السّلام - المتقدّم زمنا. ولقد أرسلنا موسى بآياتنا البيّنات وحججنا الواضحات إلى فرعون طاغية مصر، وإلى أشراف قومه، فقال: إنّي رسول ربّ العالمين. فلمّا جاءهم بآياتنا وحججنا إذاهم منها يضحكون وبها

يستهزئون. وما نريهم من آيةٍ إلاّ هي أكبر من أختها السّابقة عليها، وأخذناهم بالعذاب الشّديد لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى فيفردونه بالعبادة. وقد نصّت سورة الأعراف المكّيّة على هذه الآيات التّسع، وهي العصا واليد والسّنون ونقص من الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم. وكلّما اشتدّت وطأة العذاب عليهم بتجدّد الآية نادوا موسى – عليه السّلام – وقالوا: يا أيّها العالِم ادع لنا ربّك بأن يكشف عنّا العذاب بعَهْده الّذي عهد إليك إن نحن آمنّا بك واتّبعناك أن يكشف عنّا العذاب، إنّنا الآن لمهتدون. فلمّا كشف الله تعالى عنهم العذاب إذاهم ينكثون العهد وينقضون الميثاق.

بل إنّ فرعون مصر الطّاغية نادى في قومه قال يا قوم أليس لي وحدي دون سواي مُلك مصر، وهذه الأنهار المتفرّعة من نهر النّيل العظيم تجري من تحت قصوري، وفي حدائقي الغنّاء. أفلا تُبصرون بأعينكم الّتي في رؤوسكم صحّة ما أقول؟ ألست أنا أفضل مِنْ هذا الّذي هو ضعيف فقير ولا يكاد يُفْصح عمّا في نفسه إذا تكلّم؟ وكذب فرعون الطّاغية، فموسى – عليه السّلام – هو العزيز الكريم، وقد استجاب الله تعالى دعاءه فحلّ عقدةً من لسانه ففقه قومه قوله عليه السّلام.

واستمرّ فرعون يهذي وهو يخاطب قومه فقال: هلاّ أُلْقي على موسى أَسْوِرَة من ذهب يضعها في معصمه أو قلادة من ذهب يضعها في عنقه جرياً على عادة الّذين يُنَصَّبون ملوكا؟ وهلاّ جاء معه الملائكة مرافقين له متتابعين يشهدون أنّه رسول ربّ العالمين؟ لقد استخف فرعون عقول قومه فكانوا خفاف العقول فعلاً فأطاعوه وعصوا الله تعالى. إنّهم كانوا قوماً فاسقين.

فلمّا أسخط فرعون وقومه الله تعالى عليهم انتقم عزّ وجلّ منهم فأغرقهم أجمعين فجعلهم عبرةً سابقةً يتّعظ بها المتقدّمون، وعظةً لاحقةً يعتبر بها المتأخّرون.

(٦)

"يجادل كفّار مكّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالباطل في عيسى عليه السّلام عبد الله ورسوله وإحدى علامات السّاعة الّتي لا شكّ فيها"

الآيات (٥٧-٦٦)

بعد الحديث عن موسى – عليه الصّلاة والسّلام – ومعاناته مع فرعون وملئه بقصد تثبيت فؤاد المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم – لقوّة الشّبه بين دعوة محمّد ودعوة موسى يتحوّل الحديث إلى عيسى – عليه السّلام – آخر أنبياء بني إسرائيل، والّذي ليس بينه وبين محمّدٍ – صلّى الله عليه وسلّم – نبيّ. ويلحظ أنّ عيسى – عليه السّلام– آخر النّبيّين السّابقين الّذين تتحدّث عنهم السّورة الكريمة. ضرب الله تعالى مَثَل عيسى –عليه السّلام – الذّي وُلِد من أمّ ولا أب بآدم – عليه السّلام – الأشدّ غرابةً، وُجِد بإرادة الله تعالى من غير أبوين، إنّما خلقه الله تعالى من طينٍ لازب. ولمّا كان آدم – عليه السّلام – ليس ابناً لله تعالى كذلك عيسى – عليه السّلام – ليس ابناً لله تعالى بطريق الأحرى والأولى لأنّه أقلّ غرابةً من آدم عليه السّلام. وكان ضرب هذا المثل في الآية الكريمة التّاسعة والخمسين من سورة آل عمران. ولمّا جاء في الآية الكريمة الثّامنة والتّسعين من سورة الأنبياء الخطاب للمشركين بأنّهم سيكونون حطب جهنّم هم وما يعبدون من دون الله تعالى طار المشركون من الفرح وقالوا للنّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم– : رضينا أن تكون آلهتنا يوم القيامة مع عيسى وعزير والملائكة في نار جهنّم.

وتغافل المشركون عن الحقيقة بكون هؤلاء لم يكونوا راضين عن عبادة المشركين لهم، بل إنّ بعضهم لم يكن على علمٍ بعبادة المشركين له، كعيسى عليه السّلام. وقد قضت الآية الكريمة الواحدة بعد المئة من سورة الأنبياء الكريمة على تغافل المشركين عن هذه الحقيقة وبيّنت أنّ هؤلاء الّذين سبقت لهم من الله تعالى السّعادة مبعدون عن نار جهنّم. وإنّ السّياق في سورة الزّخرف يتحدّث في هذه المعاني.

ولمّا ضُرِب ابن مريم بآدم مثلاً إذا قومك يا محمّد يطيرون فرحاً، ويضجّون طربا، ويقولون : رضينا أن تكون آلهتنا في نار جهنّم مع تلك الكوكبة من عباد الله تعالى الصّالحين. وقال المشركون: أآلهتنا خيرٌ أم عيسى عليه السّلام؟ ما ضرب المشركون هذا المثل، ولم يجعلوا مَثَل عيسى - عليه السّلام - مثل الأصنام الّتي يعبدونها من دون الله تعالى إلاّ بقصد الجدل العقيم، لأنّهم لا تنقصهم الحجّة، ولأنّ النّصارى، وليس كفّار مكّة هم الذّين يعبدون عيسى عليه السّلام. إنّهم قومٌ يحبون الخصام، لذات الخصام.

ما عيسى - عليه السّلام - إلاّ عبد أنعم الله تعالى عليه بالكثير من النّعم، وجعله الله تعالى آيةً لبني إسرائيل ودليلاً على القدرة المطلقة للذّات العليّة.

ولو شاء الله تعالى القادر على كل شيءٍ أن يهلككم يا كفّار مكّة، ويجعل بدلاً منكم ملائكةً يخلفونكم في الأرض ويفردون الله تعالى بالعبادة لفعل.

وإنّ عيسى - عليه السّلام - من علامات السّاعة. إنّه - عليه السّلام -يترل بين يدي السّاعة واحداً من أفراد أمّة محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم -، فلا تشكّوا يا كفّار مكّة في السّاعة، واتّبعوني هذا صراط مستقيم أدعوكم إليه، وطريق قويم أهديكم إليه. ولا يصدّنّكم الشّيطان الرّجيم عن سبيل الهدى، إنّه لكم أيّها النّاس عدوٌّ بيّن العداوة منذ عهد أبيكم آدم عليه السّلام.